كابوس الشاعر

نصار عبد الله

(١) العودة

بعد سبع سنين قضاها الشاعر ن . ع فى خدمة القوات المسلحة شهد خلالها معارك حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر واستشهاد عدد كبير من زملائه ، عاد إلى عمله المدنى بادارة البحوث الاقتصادية بالمصرف المركزى ، عاد إلى عمله الروتينى ليصبح اسمه مرة أخرى « الاستاذ فلان » . . بعد أن كان الجندى مؤهلات « فلان » . . عاد ليغرق فى أكداس من التقارير والملفات والصحف وبرقيات وكالات الأنباء والأرقام وجداول الاحصاليات والرسوم البيانية ، ثم يمضى اخر الشهر إلى الخزانة لكى يقبض راتبه الشهرى . .

الحق يقال . . إن بلادنا كريمة وبارة بابنائها المقاتلين ، فرغم انقطاعهم عن العمل طوال فترة التجنيد ظلت مرتباتهم تصرف بلا انقطاع . . وعلى الرغم من الضائقة المالية التى أصابتها بسبب الحرب فقد ظلوا يحصلون على علاواتهم وترقياتهم . لا ينقصون شيئا عن زملائهم الموجودين بالعمل فعلا . بل لقد كانت لهم الأولوية فى بعض الحالات . وهكذا وجد الشاعر ن . ع أن راتبه الشهرى قد قفز خلال هذه السنوات السبع إلى ثلاثين جنيها كاملة ، وهو مبلغ يبر بنفقات معيشته لمدة عشرة أيام بأكملها .

ها هو ذا يحتل نفس مكتبه القديم . . وهذه تقارير الـ I.M.F. والـ I.B.R.D. والـ E.E.C. والفيانشيال والايكونومست والأهرام الاقتصادى . هذا هو مشروع اختناق سيمنوبان وفلة راموبيه وبوتوزيكو والرباط يا للصداع . حرب أكتوبر هى التى رفعت أسعار البترول من ثلاثة دولارات للبرميل . . إلى ثلاثة عشر دولارا . فائض السعودية ودول الخليج سوف يزداد فى العام القادم بمقدار ثلاثين ألف مليون دولار على الأقل . وطبقا لمن المتوقع أن تشهد موازين المدفوعات فى الدول الصناعية عجزا شديدا . وسوف تعانى اقتصادياتها من ضغوط تضخمية . سوف ينتقل التضخم عبر التجاره الخارجية إلى الدول الأخذة فى الغو . ذوو الدخول الثابتة هم الذين سوف يعانون من التضخم . قيمة الثلاثين جنيها من الناحية الفعلية سوف تنخفض إلى ما يعادل عشرة جنيهات وربما أقل . . يا للصداع . الأرقام تتراجع أمام عينيه والصداع يشتد والجداول تتداخل والرسوم البيانية تتراقص . ها هو ذا يميل برأسه على المكتب ويستغرق فى النوم . حتى يداهمه الكابوس .

٢ – الكابوس

أخيرا ها هو ذا الشاعر ن . ع يسافر إلى احد البلاد البترولية ليعمل باحثا مساعدا بدائرة الابحاث الاقتصادية التابعة لوزارة المالية والنفط . . العمل فى طبيعته لا يختلف كثيرا عن العمل فى المصرف المركزى المصرى . . غير أن المكاتب وثيرة . . والحجرات مكيفة الهواء ومجهزة بأحدث الأدوات والأجهزة . . وقد خصصت له حجرة مستقلة لمجاورها حجرة رئيس الدائرة . . حيا استقبله أول مرة شعر بالفزع من تلك النظرات الغريبة التى راح يرمقه بها . . وجه صخرى كالح تتوسطه عينان غائرتان . . لحية بيضاء وطربوش عرق على الرأس . . وملابس أفرنجية فاخرة . . ونظرات غريبة يشعر بها تخترق وجهه كوخز الابر . قال له اسمع يا مردوس أنا هنا رئيسك . وأتمنى أن أرى نتيجة جهدك قريبا لأن اخواننا المصريين عيال مجتهدون . ولا نعرى ماذا كنا سنفعل بدونهم . . وراح ينظر إليه تلك النظرة المرعبة .

قال الشاعر ن . ع لنفسه . يا للمرارة . لابد لهذا البير . لابد هذا الصخر . ابتسم فى سره وقرر أن يجعل هذه العبارة مطلعا لقصيدته القادمة . ثم انتبه على صوت الرجل الصخرى وهو يصرخ . اسمع يا مردوس . قلت لك إنى هنا رئيسك ولا ينبغى لك أبدا أن يشرد ذهنك وأنت فى حضرة رئيسك .

قال الشاعر . عفوا يا سيدى . إنى مصغ إليك .

قال الرجل الصخرى الكالح . نريد منك بحثا عن احتياطى بترول المنطقة عام ١٩٨٠ وقيمته النقدية طبقا للأسعار المتوقعة فى ذلك الوقت . كذلك نريد منك أن تخصص فصلا فى البحث تتناول فيه تعداد الشعب المصرى المتوقع عام ١٩٨٠ ونسبة السكان إلى البترول .

قال الشاعر . عفوا سيدى للصد تعداد الشعب المصرى . أم تعداد السكان هنا فى هذا البلد ؟

قال الرجل . قلت لك تعداد الشعب المصرى .

قال الشاعر لنفسه . شىء غريب . وما علاقة قيمة احتياطى البترول بتعداد الشعب المصرى . من يدرى لعلهم يعتزمون فى عام ١٩٨٠ أن يوزعوا ما يحققونه من عوائد على أبناء الشعب المصرى مكافأة له على ما قدمه من جهد وعرق وكفاح وتضحيات بعد أن يكونوا هم قد استكملوا عملية التنمية واصبحوا غير محتاجين إلى هذه العوائد الضخمة . وابتسم مرة أخرى ساخرا من هذا الخاطر الطريف . وصرخ فيه الرجل الصخرى مرة أخرى : اسمع يا مردوس ها هو ذا ذهنك يشرد مرة أخرى وأنت فى حضرة رئيسك .

قال الشاعر . عفوا سيدى كنت أفكر فى العلاقة التى تربط بين احتياطى البترول فى بلدكم وبين تعداد الشعب المصرى . . إن البحث سوف يبدو غريبا دون ابراز هذه العلاقة . قال الرجل الصخرى : يا مردوس لا شأن لك بهذا . نحن أدرى بما نحتاج إليه من بيانات . أنت هنا لكى تنفذ ما يطلبه منك رئيسك فحسب . وأنا هنا الرئيس كما تعلم . وأود أن أقول لك إننا نريد هذا البحث بصفة عاجلة جدا . فى خلال ثلاثة أيام على الأكثر . هيا اذهب إلى مكتبك وابدأ العمل . ونظر إليه تلك

النظرة المزعجة . فاسرع الشاعر إلى مكتبه . هربا من هذه النظرة على الأقل . بدأ العمل غير أنه توقف فجأة إذ خيل إليه أنه يسمع أصواتا غريبة فى المكتب المجاور . أصوات آلات وتروس . ثم صرخات مكتومة . الجدران غير منفذة للصوت لكن هذه الأصوات حقيقة بدون شك . وهى إن لم تكن خافته فإنها لا يمكن أن تكون وهما . ترى أهو مكتب الرئيس . أو أنه ورشة عامضة . لحدث فيها الآن أشياء ما . عاود العمل ثم توقف عندما سمع الأصوات مرة أخرى . وأحس بدهشه تتشت واستبد به الفضول . قال لنفسه سأقتحم الغرفة بدون استئذان وليكن ما يكون . خرج من مكتبه واتجه إلى باب مكتب الرئيس . توقف برهة عند الباب ووضع أذنه على ثقب المفتاح غير أنه لم يسمع شيئا . كل شىء هادىء تماما . أدار مقبض الباب فجأة ودخل إلى الداخل . كان الرئيس ذو الوجه الصخرى الكالح منكبا على مكتبه يطالع كتابا . وعندما شعر بدخوله جذب درج المكتب وألقى الكتاب بداخله فى سرعة خاطفة كمن يحاول اخفاء شىء هام . ثم نظر إليه فى توهج وغضب : كيف تدخل بلا استئذان . ألا تعرفون الذوق فى بلادكم . قال الشاعر : عفوا سيدى ولكن الضباح الأحمر الموضوع على الباب بالخارج كان منطفئا فلم أر مانعا من الدخول مباشرة . قال الرجل الصخرى وقد هدأت ملامحه : تقول كان منطفئا . حسنا . حسنا . لعل الدائرة الالكترونية معطلة . وسوف نصلحها . لكن ما تريد ؟ قال الشاعر : أريد أن أقول إن مدة الثلاثة أيام لا تكفى اطلاقا لاعداد البحث المطلوب .

قال الرجل : لا بد من الجازه خلال ثلاثة أيام على الأكثر . إذ أن هناك مؤتمرا مهما سوف : أحضره بعد الثلاثة أيام وسوف ألقى البحث على الحاضرين .

قال الشاعر : يمكنى أن أنجزه خلال ثلاثة أيام ولكن ينبغى أن أبق فى المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية .

قال الرجل الصخرى : فهمت . أنت تريد أن تطلب أجرا اضافيا . لا بأس . لا بأس سوف تمنحك أجرا إضافيا . قال الشاعر : كلا لا أتكلم عن الأجر الإضافى . لكنى أرجو أن تصرحوا لى بالبقاء فى المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية لأنى أعلم أن الجميع يغادرون مكاتبهم فى هذه المواعيد . ومن المحظور أن يبقى أحد بعد ذلك . قال الصخرى يا مرءوس معك حق . إنى أصرح لك بالبقاء فى المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية . ثم فتح درج المكتب وأخرج رزمة من المفاتيح أعطاها له قائلا . خذ هذه المفاتيح وسوف أنبه على العمال بأنك سوف تقوم بإقفال الأبواب بدلا منهم . لا تنس أن تتأكد من إقفالها جيدا قبل أن تنصرف . أخذ الشاعر المفاتيح وعاد الى مكتبه . حاول أن يبدأ العمل غير أنه لم يستطع فقد كان الذهن مشتتا إلى حد كبير . ترى ما هذه الأصوات التى سمعها . لعلها كانت نبعث من جهاز تسجيل أو مذياع موضوع فى مكان ما بالغرفة أو لعلها أصوات حقيقية مباشرة . لكن كيف ؟ . . وما مصدرها اذن ؟ . . وما هذا الكتاب ذو الغلاف الأسود الذى أسرع الرجل الصخرى الكالح باخفائه كما لو كان يخفى شيئا خطيرا ؟ . . قال لنفسه . سوف نرى . لابد أن أكتشف الأمر بعد انصرافه . إنه لا يدرى كم من الوقت ظل فى مواجهته تلك غير أنه عندما ألقى نظرة إلى ساعة الحائط ثم إلى ساعته تأكد أن موعد الانصراف قد حان منذ ساعة على الأقل . حينئذ نبض قلبه بدق وجسده يرتعش ومضى إلى غرفة الرئيس . أدار مقبض الباب ودخل إلى الغرفة . اتجه إلى المكتب وراح يجرب المفاتيح . حتى انفتح درج المكتب . لكنه فوجىء بأنه خال تماما من أى شىء . ظل لحظة مبهوتا . غير أن خاطرا طرأ على باله فراح يفحص الدرج بعناية . وتأكد له صدق خاطره عندما لاحظ أن جدران الدرج وأرضيته سميكة جدا قال لنفسه . هنا يوجد درج سرى داخل الدرج . راح يتحسس أرضية الدرج بعناية حتى عثرت أصابعه على زر صغير . فأحس بالانتصار . وضغط على الزر . لكن لم يحدث شىء . أعاد الضغط على الزر عدة مرات دون جدوى . فأحس بالقنوط . وراح ينظر إلى درج المكتب الفارغ حين خطر له خاطر اخر . هذان التجويفان العاثران فى أرضية الدرج واللذان كان يظنهما مخصصين لوضع أقلام الحبر وما الى ذلك . ليسا فى الواقع مخصصين لهذا الغرض إذ لا يوجد قلم حبر بهذه المقاسات . أخرج من جيبه بطاريته وأفرغ حجارتها التورش . وضع حجرين منها داخل التجويفين فاستقرا تماما . هكذا . اذن فالدرج السرى يعمل بحجرين جهد كل منهما ١.٥ فولت . ضغط على الزر فسمع نكة خفيفة ثم انفتح الدرج السرى ولاح الكتاب الأسود . أخرجه من مكتبه وجلس على المكتب وراح ينظر إليه . على الغلاف كانت عبارة ، سرى للغاية ، تعلوها تلك الأحرف الثلاثة المشئومة C . I . A اذن فهذه وكالة المخابرات المركزية ، بالسخرية القدر . هل شاء لك حظك التعس أن تخدم وكالة المخابرات فى النهاية دون أن تدرى ؟ . . يا لسوء العاقبة . بدأ يقلب صفحاته . الصفحة الأولى عنوانها مقدمة علمية بالغة الأهمية . عن أحدث النظريات التى تفسر نشأة البترول وتكونه . يقول التقرير . « لقد تعددت النظريات التى تفسر أصل البترول . غير أنه قد ثبت لدينا مما لا يقبل الشك . نتيجة للبحوث الطويلة المضنية التى قام بها علماؤنا المتخصصون أن البترول فى هذه المنطقة . هو فى الأصل دماء بشرية تفاعلت مع التربة وتعرضت لظروف معينة من الضغط والحرارة حتى تحولت إلى بترول . ورغما أدى هذا إلى الاعتقاد بأنه كلما زادت كمية الدماء المسفوحة زادت كمية البترول فى نفس المنطقة التى تسيل فيها الدماء . لكن هذا التصور غير صحيح . ذلك أن البترول المتكون انما يرحل عادة عبر مسام التربة إلى مسافات بعيدة دون أن يحجزه شىء . ويظل راحلا . حتى يتجمع داخل تكوينات جيولوجية معينة تعرف « بالمصايد » هى التى تحجزه داخل جدرانها غير المنفذة . وهى التى تكون آثار البترول وحقوله . والدليل على ذلك أن معظم بترول المنطقة العربية هو فى الأصل دماء مصرية فى الغالب . غير أنه لما كانت التربة المصرية يندر فيها وجود المصايد . فقد رحلت هذه الدماء واستقرت داخل مصايد ليبيا والسعودية والخليج . وفى الصفحة المقابلة خريطة مصورة لهذا المسار الذى اتخذته هذه الدماء . عبر الحاهاتها المختلفة فى رحيلها الطويل عبر الأيام والسنين » .

أحس الشاعر ن . ع بالدماء تكاد تقفز فى عروقه وهو يواصل القراءة . فى الصفحة التالية « تقرير عن مؤتمر جالسوورو السرى الأول » .

« انعقد هذا المؤتمر بشكل سرى فى جالسوورو بالولايات المتحدة تحت اشراف وكالة المخابرات المركزية وقد حضره كل من الممثلين الشخصيين لرؤساء الدول البترولية بمنطقة الشرق الأوسط بالإضافة إلى ممثل الشركات المنتجة للبترول وممثل البنوك والمصارف العامة فى أوربا وأمريكا ، وقد سادت المؤتمر روح طيبة من التعاون والتفاهم الوثيق الذى تمليه المصلحة المشتركة المتمثلة فى ضرورة زيادة أرباح كل من الدول والشركات المنتجة وما يستتبعه ذلك من زيادة حجم الودائع لدى البنوك . فضلا عما تتطلبه مصلحة الاقتصاد العالمى ككل من ضرورة إيجاد أنسب الحلول لمواجهة الطلب العالمى المتزايد على موارد الطاقة . وقد وضع الحاضرون نصب أعينهم ما انتهت إليه الدراسات العلمية من أن الدماء المصرية هى المنبع الرئيسى لتكوين احتياطات البترول فى هذه المنطقة . مما يدعو إلى ضرورة الاستنزاف المستمر لهذه الدماء وهو الأمر الذى يكفله حاليا وجود اسرائيل فى المنطقة . ومن ثم كان واضحا لكافة المشتركين فى المؤتمر أهمية تشجيع كل من مصر وإسرائيل على شن الحروب المتوالية التى لا ينحقق فيها لاحدهما على الاخر نصر كامل ولا تلحق به هزيمة ساحقة . بل تظل دائما لاحدهما فرصة أن يبدأ حربا جديدة كلما حاقت به هزيمة محدودة . كما تدارس الحاضرون كذلك ما تشير إليه الدراسات العلمية من أن الدماء اليهودية تتحول أيضا إلى بترول . غير أنه بترول رديء ويحتوى على نسبة عالية من المواد السامة مما يعرض المشتغلين باستخراجه للخطر . بالإضافة إلى أن مجالات استخدامه الصناعية هى مجالات محدودة للغاية ويمكن أن يغنى عنها بسهولة ذلك البترول الناتج من تلك الدماء اللبنانية والأردنية والسورية . فضلا عن جودة البترول الناتج من تلك الدماء إلى حد يقرب من مستوى جودة بترول الدماء المصرية .

وبعد أن تدارس الحاضرون كافة جوانب الموقف انتهوا إلى اصدار التوصيات المحددة التالية :

أولا :

على الولايات المتحدة الأمريكية أن تغض النظر عما يقدمه الاتحاد السوفيتى والصين والدول الاشتراكية الأخرى من الأسلحة إلى مصر لان هذه الأسلحة هى التى تشجعها على شن الحرب . وإذا ما تقاعس الاتحاد السوفيتى عن تقديم الاسلحة إلى مصر كما هو حادث حاليا فإن الولايات المتحدة عليها أن تقوم بهذا الدور بدلا منه إذ ينبغى علينا أن نقدم إلى مصر جانبا من احتياجاتها العسكرية مع ضمانها للتفوق العسكرى الإسرائيلى غير أنه ينبغى أن نراعى جانب الحيطة والحذر فلا نقدم لإسرائيل من الأسلحة ما يمكنها من الإجهاز على مصر تماما إذ أنه لو حدث فسوف يكون نهاية كارثة أخيرة .

ثانيا :

على جميع الأطراف المشتركة فى المؤتمر أن تعمل بكافة الوسائل على تفجير التناقضات القائمة فى المنطقة خاصة فى لبنان وسوريا والأردن والمنظمات الفلسطينية وذلك لضمان موارد ثانوية من الدماء تدعم موارد الدماء المصرية ذات الصنف الممتاز .

ثالثا :

على الدول العربية أن تمول مشتريات مصر من الأسلحة كما أن عليها أن تقدم إليها المعونات المالية والمعونات الغذائية حتى لا يصاب أبناء الشعب المصرى بفقر الدم مما يؤثر تأثيرا سيئا على مستوى جودة البترول الناتج من دمائهم . غير أنه ينبغى مراعاة الحذر فى ذلك إذ يجب أن تكون المعونة بقدر محدود حتى لا يشعر المصريون بالامتلاء وتتحول مصر إلى قوة عملاقة قادرة على حسم كل شىء لحسابها الخاص .

رابعا :

ينبغى كذلك تشجيع مناخ الجريمة والإرهاب فى مصر وذلك لضمان تدفق الدماء خاصة فى تلك الفترات التى تتوقف فيها الحرب . وفى هذا المجال ينبغى تشجيع الجماعات الدينية المتطرفة . تلك التى تتميز عادة بالتعطش الشديد إلى سفك الدم .

خامسا :

ينبغى كذلك تشجيع المصريين على التوالد وزيادة النسل وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فى البند ثالثا من تقديم المعونات الاقتصادية إلى مصر فإن الضرورى أيضا شن حملة اعلامية ضخمة لحث المصريين على زيادة نسلهم . ولما كان الشعب المصرى متدينا بطبيعته فإن أنسب المداخل إلى ذلك هو المدخل الدينى وفى هذا المجال ينبغى الترويج للأحاديث النبوية الكريمة التى تدعو إلى زيادة النسل ومن أمثلتها « تناكحوا . تناسلوا . فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفى نفس الوقت ينبغى التشكيك فى صحة الأحاديث التى تدعو إلى تقليل النسل ومنها « جهد البلاء . كثرة العيال وقلة الشىء » باعتبارها أحاديث مدسوسة ضعيفة السند . وعلى أية حال وطبقا للدراسات المتاحة فإن تعداد الشعب المصرى ينبغى ألا يقل بحال من الأحوال عن ٥٠ مليون نسمة عام ١٩٨٠ .

. . . ارتجف الشاعر ن . ع عندما وصل إلى هذا الحد